دائرة الأساطير المقفلة وطبيعة الحصار الإثنو طائفي للشبك

الشبك: الطائفة الضائعة بين التعصّب العِرقي والإبادة الثقافية (٢)

سعد سلوم

واجه الشبك تحدي التشكيك في هويتهم الإثنية، وولائهم وانتمائهم وطبيعة معتقداتهم، فاضطروا إلى فبركة هويات تتطابق مع هوية السلطة، أو تتماهى مع مشروعها لبناء دولة/أمة، وقسروا على رسم أشجار نسب ترد أصولهم إلى عشائر عربية لغرض التطابق مع إملاءات السلطة وتحديداتها، بعد أن أرغمتهم على هذه المطابقة سياسات هيمنة استيعابية(Inclusionary) مدعومة بتشريعات وتعليمات تحض على مثل هذا التطابق الهوياتي .

وأحاطت بالشبك من كل جانب صور نمطية تشكك في عقيدتهم الإسلامية، وتظهرهم في صورة فرقة منحرفة أو ضالة، فهم غير ملتزمين بالطقوس مثل الصلاة والصيام، ويمتازون بالتحلل الأخلاقي من خلال ما أشيع عن حفلات شعائرية ماجنة يؤدونها تسمى "ليلة الكفشة"، على نحو مماثل لاتهام أقليات أخرى مثل الإيزيديين والبهائيين والمسيحيين . وأخرجتهم بعض الأوهام الشائعة من دائرة الإسلام من خلال إشاعة فكرة اتّباعهم نصوصا مقدسة موازية للقرآن، في حين أن الشبك في الواقع مسلمون، وكتابهم المقدس هو القرآن، وبالرغم من انقسامهم المذهبي؛ بين شيعة وسنة، إلا أنهم يشتركون بميراث عقائدي طقوسي خاص من (العرفان والتصوف)، لتأثرهم تاريخيا ببعض الطرائق الصوفية . وقلبت هويتهم قوالب ذهنية ناتجة عن جهل عام بهم وبثقافتهم، اذ يعدون "ديناً" وليسوا "جماعة" من الاقليات المسلمة غير العربية، فقد ورد في احد المناهج الدراسية اسم "الشبك" ضمن الاديان في العراق، وحين تم الاعتراض من قبلهم بررت لجنة وضع المناهج الدراسية الخطأ بعدم توفر المعلومات عنهم، في وقت استقت فيه اللجنة المعلومات الخاطئة من العم."Google"

كما ورد ذكرهم في دستور إقليم كردستان ضمن الاديان ايضا، لتجنب عدهم "اقلية قومية" كما هو واضح. لكن تتعلق اخطر التهم الموجهة إلى الشبك، والعقدة التي تنتظم حولها جميع الأوهام والاتهامات الاخرى، في عقدة النقاء السلالي التي ينظر من خلالها إلى الشبك وأقليات اخرى، وأفرزت هذه العقدة صورتهم السلبية بوصفهم من بقايا الغزاة، الأمر الذي يبرر لدى

مضطهديهم انواع التصنيف والتنميط التي يتعرضون لها، ويجعل منهم نهبا لصراع الهويات الكبرى حولهم (العرب والكرد)، وعزز من ذلك أنهم منذ خمسة قرون يعيشون ضمن رقعة ما يعرف بـ"المناطق المتنازع عليها" بين العرب والكرد.

في واقع عراقي يضيع فيه الصغار، لم يحز ما تعرض له الشبك على اهتمام بارز، فقد كانوا أسوة بمن رحلوا من الكرد في عمليات الأنفال، وفي هذا السياق اقتلع أكثر من عشرة آلاف شخص من مناطقهم إلى منطقة سهل حرير في أربيل، لاسيما من قرية "الموفقية" التي تقع ضمن خريطة تضم أربعاً وتسعين قرية شبكية تنتشر في سهل نينوى، وتمتد من ناحية تلكيف شمالاً إلى ناحية النمرود جنوباً. وبعد ان رحلوا إلى منطقة سهل حرير في العام ١٩٨٨، أتيح لهم في ما بعد الرجوع إلى مناطقهم الأصلية بعد عامين، بما أن وزنهم الديموغرافي لا يشكل خطرا على النظام، فضلا عن عدم وجود تنظيم سياسي أو نشاط مسلح ضمن صفوفهم يقلق السلطة آنذاك. وبرغم التمييز الاجتماعي ضد الأقليات، إلا أنه من وجهة نظر العديد من ابناء الشبك الذين اجريت معهم مقابلات في الاعوام الماضية، فإن التراتبية الاجتماعية كانت تضع الشبك في سلم ادنى من الأقليات الدينية الاخرى في الموصل، بل إن هوية المدينة المسيحية قبل الإسلام كانت تمنح المسيحيين افضلية في تبني صفة السكان الأصليين التي تثير بدورها صراعا على السرد والأصالة، ونقاء الدم الممزوج بادعاءات متقابلة .

التصنيف الاضيق للشبك يعدهم "روافض"، الأمر الذي يعرضهم إلى خطر الإبادة، والنظر إليهم كبقايا غزاة، استعملت ثنائية "غزاة وشعوب اصلية" ضدهم على نحو بالغ الوضوح على خلفية الحرب مع ايران، فأصبحت الأنا العربية مركزا للأصالة في مقابل ممثلي الغزاة الصفويين وبقاياهم، بما سيمهد لاحقا لتبرير طردهم ومحو وجودهم بالكامل من مدينة الموصل. أما التصنيف الآخر فيتضمن صورا نمطية وتشويهات تهدف إلى استكمال قصة المحو وإخراجهم من دائرة القبول الاجتماعي العام عن طريق التشكيك بهويتهم الدينية من خلال عدّهم فرقة غير مسلمة . فعلى العكس من الأقليات الدينية التي تواجه معضلة عدم الاعتراف بها بسبب عدم امتلاكها كتابا مقدسا، مثل الإيزيديين، او اقليات تم التشكيك بتوحيد كتبها المقدسة عن جهل مقصود او غباء مثل المندائيين، فإن الشبك يواجهون اتهامات بوجود كتاب مقدس لديهم غير القرآن هو كتاب "البويوروق ."

وبذلك يصبحون فرقة ضالة وغير مسلمة، ويخرجون من دائرة الإسلام بسبب هذه الادعاءات، في حين يعدّ الشبك أقلية مسلمة وكتابهم المقدس هو القرآن مثل سائر المسلمين. ويعود منشأ هذا الاتهام في كتابات الباحثين إلى ما أشاعه الناس حولهم، بسبب انغلاقهم الديني وعزلتهم . وقد نشر أحمد حامد الصراف في كتابه عن الشبك، المنشور في بغداد ١٩٥٤. هذه النصوص المقدسة التي تدعى "المناقب أو البويوروق"، ويشير الصراف الى انها أحد كتبهم المقدسة، وأنهم يحرصون على أن لاتقع عليه عين أحد، وأن لا تلمسه يد وهو الأنفس الأقدس وأعز من كل عزيز! قدم الصراف الكتاب المقدس بالقول: "إنه كتاب يحتوي على حوار في آداب الطريقة بين الشيخ صدر الدين وبين قطب العارفين الشيخ صفي الدين بن إسحق الأردبيلي، ويعد من كتب الشبك المقدسة ويعرف عندهم بـ"البرخ" البويوروق أي ما يتفضل به". وإذا كان الكتاب لا يمكن نسبته إلى مؤلف معروف، فإن الصراف يرجح أن يكون من تأليف أحد المرشدين الكبار من كبار الطريقة القزلباشية، كما يشكك الصراف في وجود كتب مقدسة أخرى قد لا يكون قد اهتدى إليها .

في الواقع ان لغة "البويوروق" هذا الكتاب المقدس المفترض لا علاقة لها بلغة الشبك التي هي لغة خاصة بهم، فلغة "البويوروق"؛ هي التركية. ولغة الشبك تنتمي إلى مجموعة اللغات الأذرية الهندو–أوروبية، وبالرغم من كثرة المفردات التي تشترك فيها مع اللغات الأخرى، العربية والفارسية والتركية والهندية والكردية، إلا أنها لا يمكن عدّها لغة خليطا، فلهذا الاشتراك مبرراته وأسبابه وجميع هذه اللغات في الحقيقة تشترك في مفردات كثيرة، والسبب ناتج من سكناهم في منطقة واحدة، واعتناقهم ديناً واحداً، والاختلاط والمصاهرة لهما دورهما الفاعل في تسرب هذه المفردات من لغة إلى أخرى التي نطلق عليها عملية التأثير والتأثر. فالدين الإسلامي حتم على الشبك تعلم اللغة العربية لقراءة القرآن وتعلم الفقه الإسلامي، والجيرة والمصالح المشتركة حتمت عليهم تعلم اللغة الكردية، وأصولهم القديمة جلبت معها تأثيرات اللغة الفارسية . كما يثير كتاب عبدالمنعم الغلامي (بقايا الفرق الباطنية في لواء الموصل) الذي طبع في العام ١٩٥٠ انزعاج الشبك على نحو مماثل لانزعاجهم من كتاب احمد الصراف، وقد وصفهم بالغلاة، و اشاع قضية شربهم الخمر اثناء عباداتهم في اجتماع "جمعة لخ" ومغالاتهم بالتشيع، وقد

اخبرني اكثر من مصدر شبكي انه في إثر نشر الكتاب ذهب مجموعة من وجهاء الشبك إلى وزير المعارف السيد محمد الصدر، وطلبوا منه وقف نشر ذلك الكتاب، واستجاب الصدر حينها لمطالب الوفد. وليس هناك من وسيلة للتثبت من هذه المعلومة في ضوء عدم ورودها في مصدر مستقل، او الاشارة لها من قبل الباحث المتهم بالتشويه، كما فعل عبد الزراق الحسني في مقدمة كتابه عن المندائيين عن المحاكمة التي تعرض لها بسبب اتهامه لهم بعدم التوحيد، او ما يذكره الـــدملوجي عـــن غضـــب الايزيـــديين مـــن كتابـــه ومحـــاولتهم عرقلـــة نشـــره. هناك ايضا، كتابات خلطت بين الشبك وبين بقية الأقليات المجاورة بسبب تشابه مزعوم أو تأثر وتأثير بين جماعات متجاورة؛ منها الخلط الذي وقع فيه المؤرخ عباس العزاوي في كتابه عن الكاكائية. وقد كتب عن مثل هذا الخلط الأب "إنستاس الكرملي" في عمله البحثي "تفكهة الأذهان في تعريف ثلاثة أديان"، المنشور في مجلة المشرق البيروتية العدد ٥ لسنة ١٩٠٢ والذي أشار فيه إلى أن الشبك يزورون مزارات إيزيدية ويشاركون في حفلات الإيزيديين، وقد دفع كتابا آخرين إلى عدّهم همزة الوصل بين غلاة الشيعة والإيزيديين، ويشير الى ذلك كامل مصطفى الشيبي، في كتابه (الطريقة الصفوية ورواسبها في العراق) وهي دراسة عامة للشبك والنحل الصوفية في شمال العراق صدرت في بغداد عام ١٩٦٧. واشار الشيبي ايضا الى تأثرهم بالبيئة المسيحية من خلال نظام الاعتراف لدى رجل الدين، واتصال بعض القرى التي يقطنوها بماض مسيحي كباجربوعة وبازوايا، فضلا عن شربهم الخمر الذي يتصل بالمسيحية رأسا أو بالوساطة عن طريق النصيرية. مثل هذه الآراء تعزز من اشتقاق اسم الشبك من تشابك المعتقدات والنحل الدينية، وهو ما لا يقبله الشبك ولا يؤيدونه، ويعدونه تقليلا من إيمانهم بالإسلام وتشيعهم. أما عن تحللهم الأخلاقي وحفلاتهم الماجنة، التي سبق للكتاب والباحثين أن أشاعوا وجودها لدى الإيزيديين والكاكائيين وحتى المسيحيين، فليست سوى محاولة لتشويه صورتهم ساعد على انتشارها غموض الشبك كجماعة بسبب عدم اختلاطها، وشيوع أوهام عن معتقداتها لدى جيرانهم من العرب المسلمين .

ولأن المجتمع الشبكي يمزج بين تشيعه وممارسته لطقوس الطريقة البكتاشية على نحو لا يألفه المسلمون العرب، واتخذ حراك الهوية الشبكية في فترات متأخرة، خاصة منذ تسعينيات القرن الماضي طابع ممارسات طقوسية وشعائرية سرية داخل المنازل، فقد شجع ذلك، وضمن حدود

هذا الانغلاق والسرية في الممارسة الشعائرية والطقوسية الخاصة، منشأ الصورة النمطية عن ممارستهم طقوسا إباحية وغريبة مثل أسطورة "ليلة الكفشه"، إذ أن الانغلاق على البيئة الاجتماعية المحيطة وممارسة هذه الطقوس على نطاق ضيق وسري قد تكون أحد الأسباب التي عززت هذه الأسطورة.

أما اليوم، فلم يعد هناك غموض يحيط بعقائد الشبك، وإسلامهم معلن وتشيعهم باد للعيان. وحتى كتاب الصراف الذي أشاع بعض الأفكار النمطية عنهم، حاول التصدي لبعض التصورات الخاطئة عن الشبك في أكثر من موضع، مثل إنكاره امتيازهم بالتحلل من خلال ما أشيع عن حفلات ماجنة يؤدونها تسمى "ليلة الكفشة"، إذ يقول: "واجتماع الرجال والنساء في حظيرة واحدة لا يقع إلا في احتفال رأس السنة وليلة التعاذر "غفران كيجه سي"، والليلة العاشرة من محرم، وفي هذه الليلة تطفأ الأنوار، ويجتمع الرجال والنساء وينوحون ويبكون حتى مطلع الفجر، وإطفاء النور في الليلة العاشرة يكون على العادة في جميع انحاء البلاد التي يناح فيها على الحسين... وبالجملة فليلة الكفشة ... كذب صريح وبهتان قبيح."كذلك فعل كتّاب آخرون في صيغة دفاعية حين كتبوا عن أتباع الأديان والفرق الباطنية في العراق ، مثل كتاب عباس العزاوي في كتابه عن الكاكائية الذي شدد على ظلم هذه الاتهامات، وتبعه كتّاب مغالون مثل عبد المنعم الغلامي في كتابه "بقايا الفرق الباطنية في لواء الموصل، الصادر عن مطبعة أم الربيعين، الموصل ١٩٥٠."

بعد العام ٢٠٠٣ ظهرت مؤلفات حاولت توضيح ما غمض بشأن الشبك مثل كتاب أحمد شوكت، الشبك– الكرد المنسيون: دراسة تاريخية اجتماعية في أصولهم ولغتهم وموطنهم، أربيل،٢٠٠٤، وكتاب القاضي زهير كاظم عبود، الشبك في العراق، السليمانية، سلسلة كتب سردم العربي، ٢٠٠٦. ومنذ ذلك الحين لم يتوقف الشبك عن محاولة تعزيز حضورهم في المجال العام على نحو يتيح تغيير التصورات الخاطئة عنهم، وتوضيح المشتركات بينهم وبين الأغلبية المسلمة في البلاد.